حضرموت الثقافية

Hadhramaut AL-Thaqafiah Magazine - September - 2017 محرم ١٤٣٩هـ

مجلة فصلية - السنة الثانية العدد (5)


من أعلام حضرموت
الأديب والمؤرخ العلامة
صالح بن علي الحامد
بريشة : سالم باسليم

محتويات العدد

حديث البداية

أضواء

تراث وآثار

ترجمة

شخصيات

حوار العدد

دراسات

مدارات

كتابات

نقد

حكايات

إبداع

حضرموت الثقافية

مجلة فصلية

السنة الثانية العدد (5)

يوليو - سبتمبر 2017م

تصدر عن مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

مراسلات المجلة

hc.magazine16@gmail.com

Baaesa-١@hotmail.com

موقعنا على الشبكة الإلكترونية

www.hadramout.center

العنوان : المكلا - باجعمان عمارة بن سوّاد - ت: ٣٥٠١٣٥

الصراع القبلي في حضرموت في القرن الثالث الهجري

تعد مصادر العمانيين الفقهية منها والتاريخية مناهل يمكن للباحث أن يستقي منها معرفة تاريخية مهمة عن حضرموت، خاصة في فترة انتشار المذهب الإباضي، نظراً للجوار الجغرافي بين القطرين من جهة، ومن جهة أخرى العلاقات والروابط المذهبية بينهما، فقد ساد المذهب الإباضي في كلٍ من حضرموت وعمان خاصة بعد قيام أول إمامة إباضية بقيادة عبداللّه بن يحيى الكندي سنة ١٢٩هـ. لعل من أبرز تلك المصادر كتاب بيان الشرع للفقيه والشيخ العماني محمد بن إبراهيم الكندي(١)، وهو كتاب موسوعي فقهي في نيف وسبعين جزءاً، ضم مجموعة من السِّيَرْ والمكاتبات بعضها مرسل إلى الإباضيين الحضارمة.


عبدالكريم محروس ميزان

والسِّيَرْ (بكسر السين المشدَّدة وياء مفتوحة ثم راء ساكنة) - ومفردها سيرَة - هو اسم مشتق من الفعل (سَيَرَ) بمعنى ذَهَبَ، والسِّيرَةُ تعني: السُنَّة، والطريقة، والهيأة(٢)، واصطلاحًا هي: رسائل في معظمها ذات طابع سياسي تعبر عن وجهة نظر كاتبها حول مسألة أو مجموعة مسائل عقدية وفقهية مثارة من الواقع السياسي أو الاجتماعي أو الديني المحيط بالكاتب أو سابق عليه(٣).

ومصطلح السِّيَر في عرف العُمانيين في تلك القرون المتقدمة استعمل للإشارة إلى مجموعة من الأعمال القصيرة والتي جُمعَ بعضها في مجلد واحد، واستخدم المصطلح أحيانًا لعنونة عمل مرتبط باسم شخص ما، وعادة ما تأتي مترافقة مع رسائل أو جوابات جرى تبادلها، وشاع استخدام هذه الوسيلة على مدى زمني طويل، وبعض هذه السير هي من بواكير تاريخ التأليف الإسلامي(٤)، غير أن الذي يؤسف له أن تلك السِّير لم تُوَثَّق زمنياً بدقة، أي لم يحرص أصحابها على تحديد زمن كتابتها، وإنما يمكن الاستدلال على ذلك من خلال فترة حياة مصنفيها أو الأحداث والقضايا التي تتناولها، والتي نجدها أحياناً تمتد على حقب زمنية طويلة تصل إلى قرن من الزمان أو أكثر.

ومن أبرز تلك السير الواردة في كتاب بيان الشرع السيرة التي بعثها الإمام العماني الصلت بن مالك الخروصي (٢٣٧هـ - ٢٧٣هـ)(٥)، إلى الإمام الحضرمي أحمد بن سليمان(٦)، وكاتبها الفقيه العماني محمد بن محبوب (ت ٢٦٠هـ)(٧)، ونستدلُ من شخوص هذه السيرة أنها كُتِبَت في القرن الثالث الهجري، وفي تقديرنا منتصف ذلك القرن، وتعد مصدرًا تاريخيًا عن إباضية حضرموت في هذه الفترة؛ لأنها تسلط الضوء على قضايا مختلفة شهدتها حضرموت آنذاك، لعل من أبرزها الصراع القبلي(٨).

تتحدث السيرة عن صراع قبلي شرس انقسمت معه حضرموت إلى عصبتين قبليتين متناحرتين، سُفكت فيه الدماء وعُطلت بسببه الحدود الشرعية(٩)، حتى أن الإمام أحمد بن سليمان أصبح عاجزاً عن بسط سلطانه على البلاد، وهو الوضع الذي يبدو لنا قد دفع بعض الحضارمة إلى الدعوة لعزل هذا الإمام وتنصيب غيره، فلما وصل ذلك إلى علم الشيخ محمد بن محبوب أرسل إليهم كتاباً محذراً فيه من مغبة عزل الإمام من غير وجه حق لما في ذلك من محاذير شرعية واجتماعية(١٠).

وقد وصلت تلك الفتنة إلى حالة من الاستعصاء عجز الإمام عن حلحلة أسبابها، وجمع كلمة الحضارمة من جديد تحت راية واحدة، وظهر ذلك جلياً في خذلان رعيته له ونكثهم بوعودهم معه، ففضل أن يترك حضرموت ويخرج إلى اليمن ليقيم له إمامة عدل هناك



وينشر المعروف، وكتب إلى إخوانه في عمان بما هو عازمٌ عليه، غير إنهم لم يوافقوه في ذلك خوفاً على بقية الرعية؛ إذ لو كان الرجال قد خذلوه فما ذنب النساء والأطفال واليتامى والعجزة - حسب ردِّهم - فدعوهُ إلى التحلي بالصبر ودعوا من حوله إلى نصرته وعقد الشراء له حفاظاً على تلك الرعية(١١).

وعن تفاصيل تلك الفتنة تؤكد السيرة أن أسبابها لم تكن مذهبية، ولم تكن ناتجة عن خلاف بين الإباضيين أنفسهم، وإنما سببها تعصب وحمية قبلية لا غير(١٢)، وجاء في السيرة أن ذلك منكر يجب تغييره، وهذا التغيير يبدأ بالوقوف إلى جانب الإمام وعدم خذلانه، والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن في تركه هلاكاً للأمم(١٣).

ومن حرص الشيخ أبي عبدالله محمد بن محبوب على إخماد الفتنة وسد مداخلها وحلحلة أسبابها، رسم للإمام الحضرمي خطة يجمع بها شمل الإباضيين في حضرموت ويصلح ما خرب من أحوالهم، ولو وصل الأمر في سبيل ذلك إلى استخدام القوة. تبدأ تلك الخطة بدعوة الإمام إلى قطع الشراء على نفسه وأنصاره، كما دعاهُ إلى بذل المال وفرض الفرائض ومضاعفة العطاء للأنصار من الشراة ليضمن وقوفهم إلى جانبه، وحثَّهُ على حسن المعاملة وإظهار السرور لكل المسلمين، وفي جانب التكتيك العسكري دعَاهُ إلى تقسيم الجيش إلى مجموعات صغيرة - كراديس -، كل مجموعة لا يزيد عدد أفرادها عن خمسين شارياً، عليهم قائد عسكري حازم يحظى بالسمع والطاعة في مجموعته(١٤).

بعد ذلك حدَّدَ له الزمن الذي يخرج فيه إلى الناس لفرض سلطانه وإقامة الشرائع والحدود، وإخماد فتنة المتعصبين، وهو عند دخول وقت الثمر وقبض صدقة الماشية والثمار، على أن يخص الجند بوافر العطاء من تلك الصدقات لأنه - حسب رأيه - أجدى لإقامة الدولة وإحياء الدين من أن ينفق على الفقراء والمساكين، وأجاز أبوعبدالله للإمام أن يأخذ من الناس السلاح والخيل والكُراع ما دامت الحرب قائمة(١٥)، فإذا وضعت الحرب أوزارها أعاد ما سلم منه إلى أهله، وأما التالف فعليه دفع ثمنه إذا كان أهل ذلك المال من غير أهل الحرب، وإذا استخدموا الخيل والإبل في الركوب عليهم دفع أجرةَ ذلك لأهلها على قدر استنفاعهم بها، إذا كانوا من غير أهل الحرب، وأما إذا كانوا من أهل الحرب فلا أجرة لهم(١٦).

ويستمر أبوعبدالله في رسم خطته فيطلب من الإمام الحضرمي قيادة الجيش، ودخول البلدات والقرى، فيدعو أهلها إلى الحق، ويعلن فيهم أنه غير محارب لهم إلا من نصب له راية الحرب وجمع الناس على الفتنة، وإذا دخلوا في طاعته عليه أن يتوسط في معاملتهم ويحسن إليهم، فلا يبعدهم كل الإبعاد ولا يأذن لهم بالسير معه إلى رؤوس الفتنة، بل يأمرهم أن يلزموا دورهم وقراهم متفرقين غير مجتمعين على قائد(١٧)، وهذا يمثل حرصاً وحذراً من الغدر والضرب من الخلف.

وعندما يصل الإمام بجيشه إلى قرى رؤوس الفتنة، عليه أن يعسكر بينهم ويتخذ له الحرس، ويكون حذراً حازماً مستعيناً بالله في تحقيق أهدافه، ثم يبدأ في التفاوض مع الطرفين المتحاربين كلاً على حده، فيرسل إلى قادتهم وأصحاب الوجاهة فيهم، ويجادلهم بالتي هي أحسن ويدعوهم إلى الصلح ووقف القتال، أي يدعوهم إلى هدنة حدَّد مدتها بسنة كاملة(١٨).

وحتى تكون تلك الهدنة مقبولة عند الطرفين ومضمونة ألا يخرقها أحدٌ منهم، على الإمام أن يخبرهم أنه ما قَدِمَ عليهم وعزم على الصلح بينهم إلا بعد أن استشار إخوانه في عمان، ثم يبدأ بعد ذلك في حل المشاكل العالقة بين الطرفين بالعدل وأخذ رأي أهل العلم ولا يؤخر شيئاً من ذلك إلى انتهاء وقت الهدنة حتى لا يتجدد القتال بينهما(١٩). ولنا على ما سبق ملاحظة مهمة هي أن لمشايخ عمان كلمة مسموعة عند طرفي النزاع، وهذا يؤكد لنا أن الصراع احتدم بين طائفتين إباضيتين لأسباب قبلية، وليس صراعاً مذهبياً.

ولتثبيت الأمن والاستقرار وضمان عدم العودة إلى الحرب على الإمام أن يدعو الطرفين إلى الاستغفار والتوبة من تلك الفتنة، ثم يعيِّن له ولاة صالحين على كل البلدات ممن لم يشترك في تلك الفتنة، وأن يسند أولئك الولاة بكتائب عسكرية لحفظ الأمن خاصة في القرى التي يخشى أن يعود أهلها إلى الفتنة(٢٠).

ولما كانت هذه مجرد مشروع خطة من أبي عبدالله محمد بن محبوب فقد وضع لها بعض الاحتمالات وحدد لها المعالجات، من ذلك احتمال رفض طرفي النزاع أو أحدهما للصلح، فيبقى يتصيَّد الفرصة لإثارة الفتنة من جديد، ويأخذ خصمه على حين غرَّة. وسداً لهذا المُحتَمل أمرهُ أن لا يبرح مكانه ويبقى بينهم يترصد الطرف المعتدي ويقطع شأفة الحرب(٢١).

وهناك احتمال أكثر صعوبة من الذي قبل، يتلخص في تآلف المتحاربين وتحالفهم ضد الإمام وجيشه، وعندها يرى أبوعبدالله أن ليس للإمام خيار سوى مقاتلتهم، لكن عليه أولاً أن يحذِّر



خصومه من مغبة ما تحالفوا عليه، وإن أرادوا إلا القتال فلا يكون هو البادئ بذلك، فإذا بدأوا بالحرب فقد بغوا وحلَّ قتالهم(٢٢).

واختُتِمت السيرة بالدعاء لأهل حضرموت بالصلاح وجمع الكلمة. والشيء المؤسف له أننا لا نعلم المصير الذي آلت إليه الأمور بعد ذلك، فغياب المصادر يظل حائلاً دون إشباع نهمنا المعرفي عن تاريخ هذه الفترة، غير أن هناك إشارة مهمة يوردها الهمداني تتعلق بتلك المساعدات التي قدمها يعفر بن عبدالرحيم الحوالي لإنهاء الصراع بين قبيلتي حضرموت وكندة وتَحمُّلهِ دفع ديات القتلى(٢٣). ويبدو لنا أن هذا الصراع بين القبيلتين هو نفسه الذي تناولته سيرة الشيخ العماني محمد بن محبوب، والتي أرسلها إلى إمام حضرموت أحمد بن سليمان، نظراً لتطابق مشهد الأحداث في السيرة العمانية، إضافة إلى الفترة الزمنية (القرن الثالث الهجري)، لذا نرجِّح أن يكون اليعفريون بمساعداتهم تلك حاولوا التدخل في شؤون حضرموت ثم السيطرة عليها خاصة بعد حصول محمد بن يعفر الحوالي في المحرم من سنة ٢٥٩هـ على اعتراف من الخليفة العباسي المعتمد (٢٥٦هـ-٢٧٩هـ) بسلطته على اليمن(٢٤)، فأرسل إلى حضرموت نائباً له، لكن أهلها ناصبوه العداء، لذلك خرج بنفسه ففتحها بعد امتناعها على من قبله(٢٥)، ثمَّ أناب فيها الهزيلي جد بني الدغار وجعل شبام مركزاً لسلطته(٢٦)، وهناك من رجَّح سيطرة اليعفريين على حضرموت في حدود سنة ٢٧٠هـ(٢٧)، ويبدو أن هذا التغيير السياسي جاء على حساب إمامة أحمد بن سليمان الحضرمي الإباضي؛ إذ لا نستبعد أن يكون اليعفريون قد قضوا على إمامته وعينوا الهزيلي نائباً لهم في حضرموت.

الهوامش:

١) عالم وفقيه وشاعر من سمد بلد في نزوى، له بيان الشرع وله اللمعة المرضية توفي سنة ٥٠٨هـ. السالمي: تحفة الأعيان، ج١ ص١٨١.

٢) ابن منظور، لسان العرب، ج١ ص٤٨٨.

٣) السعدي: تطور مفهوم الكتابة، ص٨.

٤) الوهيبي، مسلم (دكتور): السير العُمانية كمصدر أولي لسائر العلوم العُمانية، سيرة خلف بن زياد البحراني نموذجا، بحث مقدم في أعمال الملتقى العلمي الثاني حول مصادر التاريخ العُماني، سلسلة وحدة الدراسات العُمانية، جامعة آل البيت، عَمّان، الأردن، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص١٣١.

٥) هو من أشهر أئمة عمان اشتهر بالزهد والتواضع، يعتبر عهده من أقوى عهود الإمامة الإباضية في عمان، حرر جزيرة سقطرى من قبضة النصارى، عمَّر طويلاً حتى ضعف عن القيام بواجبات الإمامة، ثار عليه بعض الفقهاء وعزلوه وأدى عزله إلى انقسام وصراع سياسي وفكري داخل عمان. السالمي: تحفة الأعيان، ج١ ص١٣٠.

٦) أحد أئمة الإباضيين الحضارمة، عاش في القرن الثالث الهجري، تنسب إليه سيرة وله مراسلات وبحوثات علمية مع أئمة عمان. الكندي: بيان الشرع، ج١ ص٦٤، ج٢ ص١٩٠، ١٩١، ١٩٧، ج٩ ص٤٧، ١٥٥، ج٢٧ ص١٨٨، ٢٠٠، ج٢٨ ص١٩٥، ج٦٩ ص٣، ٢١، ج٧١ ص١٠٩.

٧) ابن محبوب، هو أبو عبدالله محمد بن محبوب بن الرحيل القرشي المخزومي، فقيه إباضي عاصر بعض أئمة عمان مثل المهنا بن جيفر والصلت بن مالك الخروصي، عمل قاضياً للأخير وتولى رئاسة العلم والعلماء في عهده، توفي في الثالث من محرم سنة ٢٦٠هـ. السالمي: تحفة الأعيان، ج١ ص١٤٨، ١٥٠، ١٦٠.

٨) تناولنا في دراستنا العلمية المنهجية عن الإباضية في حضرموت كل تلك القضايا بشكل مفصل. للإفادة أكثر راجع، عبد الكريم ميزان: إباضية حضرموت من القرن الثاني إلى القرن السابع للهجرة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة حضرموت، كلية الآداب، المكلا، ٢٠١٥م.

٩) الكندي، بيان الشرع، ج١ ص٨.

١٠) مؤلف مجهول: السير والجوابات لعلماء وأئمة عمان. تحقيق سيدة كاشف، ط عمان ١٩٨٦م، ج١ ص١٣٢.

١١) بيان الشرع، ص٨. والشراء من منازل الإمامة عند الإباضيين، ومثلها الظهور والكتمان والدفاع، وهذه المنازل تسمى أيضاً مسالك الدين، ولكل منها شروط وضوابط وحالات تقرر قيامه. الخروصي: الفكر السياسي، ص٩٦، ٩٧؛ عبدالكريم ميزان: إباضية حضرموت، ص٥٠.

١٢) بيان الشرع، ج ٦٩ ص٤.

١٣) نفسه، ج٦٩ ص١١، ١٤، ١٥.

١٤) نفسه، ج٦٩ ص١٦.

١٥) الكُراع، اسم يجمع الخيل، وقيل هو السلاح، وقيل هو اسم يجمع الخيل والسلاح. ابن منظور: اللسان، ج٨ ص٣٠٦

١٦) بيان الشرع، ج٦٩ ص١٦، ١٧.

١٧) نفسه، ج٦٩ ص١٧.

١٨) نفسه، ج٦٩ ص١٨.

١٩) نفسه: ج٦٩ ص١٨.

٢٠) نفسه: ج٦٩ ص١٨.

٢١) نفسه: ج٦٩ ص١٩.

٢٢) نفسه: ج٦٩ ص١٩.

٢٣) الإكليل، ج٢ ص٦٨. الدولة اليعفرية أو الحوالية، أسسها يعفر بن عبدالرحمن الحوالي، كانت بداية ظهوره سنة ٢١٣هـ. واتخذ الحواليون من شبام كوكبان عاصمة لهم()، ثم تحولت العاصمة إلى صنعاء. عمارة: المفيد، ص٥٩.

٢٤) الصنعاني: تاريخ صنعاء، ص٧١؛ اليماني: بهجة الزمن، ص٣٨.

٢٥) الصنعاني: المصدر السابق، ص٧١؛ الحمزي: كنز الأخبار، ص٥١؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣٣ ص٧٠.

٢٦) الحميري: ملوك حمير، ص١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٨٦؛ ابن عبيدالله: إدام القوت، ط دار المنهاج، ص٥٣٥.

٢٧) ابن عبيدالله: المرجع السابق، ص٥٣٥. وفي هذه السنة توفي محمد بن يعفر. انظر المفيد لعمارة، ص٦٠.